

الفروسية عند العرب الجاهليين بين الثبات والفرار

أستاذ الأدب المساعد بجامعة أم درمان الأهلية

د. أحمد يس عبد الرحمن

المستخلص:

تهدف الدراسة إلى تتبع حال الحرب عند العرب ثباتهم وفرارهم، وما يصاحب ذلك الثبات من فخر وزهو، وما يتبع ذلك الفرار من مغبة وذم، لذا نجد العرب الجاهليين صاغوا مسوغات لفرارهم وحجج يحتجون بها، يقنعون بها أنفسهم أولاً، ثم المجتمع من بعد، إذ أن الفارس يكتوي بلهب اللوم النفسي، ويعيش ضيقاً مميّناً لفراره. اتبعت الدراسة المنهج التحليلي، والتقني النقدي لمعظم أبيات وصف الفروسية والثبات عند العرب، والفرار والهرب ومسوغاته التي ذكرها الفرسان لكل حادثة.

جاءت الدراسة مقسمة إلى محورين:

المحور الأول: تطرق فيه الباحث إلى دراسة الفروسية عند العرب، حين كانت مظهراً من مظاهر المجتمع، وكيف أنها تعدت مفهوم الحرب والقتال لتشمل قيماً خلقية، ومثل رفيعة يتحلى بها الفرسان، ويتسابقون لنيلها. كما تناول الثبات دوافعه في الحرب، ولهفة المستغيث ونصرة المظلوم. أما المحور الثاني فجاءت فيه مسوغات الفرار عند العرب الجاهليين فهم يحتجون بتلك الحجج التي تهون عليهم مغبة الفرار ومثالبه. ومنهم من يرى أن الفرار نوع من أنواع التخطيط الحربي ودراسة الواقع فلا يعتبره جبناً بل كياسة وذكاءً، ومنهم من يحمل مغبة فراره لفارسه الذي نفر أو جمح غير مبالٍ بالجماع على غير عادته. ومع ذلك يرى الباحث أن العرب كانت لهم شجاعة وبسالة لم يعرف التاريخ مثلاً. وعليه خلصت الدراسة إلى:

1. أن الفروسية عند العرب تعدت مفهوم الحرب لتشمل قيماً وأخلاقاً فاضلة حصرت على العرب بغير منازع من الشعوب الأخرى، وأصبحت الفروسية مظهراً من مظاهر المجتمع عندهم فضلاً على خبرتهم العميقة بالحرب وصبرهم وجلدهم.
 2. حب السلامة، والخوف من الموت والهرب من الأسر والتنكيل خلق طبيعي جُبلت عليه النفس البشرية، فكل فارس تنازعه نفسه بالثبات أو الفرار مهما كانت شجاعته.
 3. كلما كانت الدوافع دينية غير عصبية، زادت صبر الفارس في حتمية الثبات، لبل نجد العرب بعد إسلامهم أكثر ثباتاً وشجاعة في الحرب من جاهليتهم.
 4. مازال موضوع الدراسة بكراً يحتاج إلى كثير من الدراسات والبحوث حتى نغوص في مقومات الشخصية العربية. وسر مكنوناتها. وذلك حتماً يحتاج لمتسع في قوالب النشر.
- كلمات مفتاحية: شعر - فارس - ثبات - فرار - مجتمع.

Abstract:

The study aims to track the state of standing firm or fleeing Arabs in time of war among the Arabs, and what accompanies that from pride or slander. Therefore, the pre-Islamic Arabs formulating justifications and arguments for their flight. They use these justifications to convince themselves in the first place, then the community, as the knight is blazing with self-blame and lives deadly annoyance for his escape. The study adopted the analytical approach, and critical investigation of most of the verses describing chivalry and stability among Arabs. And fleeing justifications mentioned by the knights for each incident. The study was divided into two chapters: The first chapter: the researcher tackled the topic of knighthood of the Arabs, which it was an aspect that of the society, which transcended the concept of war and fighting to include moral values and high ideals knights are racing to get them. It also addressed the standing firm in war and its motives the eagerness of the distressed and the support of the oppressed. As for the second chapter, the justifications for fleeing were presented to the pre-Islamic Arabs in the way that made it easy for them to escape. Some of them considered fleeing from war as a form of war planning and they didn't consider it as cowardice, instead they see it as smartness. Some of them blame their horses that unnaturally escaped. The researcher claims that Arabs have a unique bravery across all history. Reality does not consider it cowardice, but rather civility and intelligence Indifferent to the bridle as usual. Nevertheless, the researcher believes that the Arabs had courage and valor that history has not known. Accordingly, the study concluded the following: A/ The chivalry among the Arabs went beyond the concept of war to include virtuous values and morals that were restricted to the Arabs unchallenged by other peoples, and chivalry became a manifestation of their society, in addition to their deep experience of war and their patience and perseverance.

b/ The love of safety, the fear of death and the escape from captivity and abuse is a natural trait that the human soul has built upon. Every knight is contested by himself, whether he persists or flees, no matter how brave he is.

c/ The more religious motives are not nervous, the more patience the knight is in the inevitability of steadfastness, so we find the Arabs after their conversion to Islam more steadfast and courageous in war

than their ignorance.

D/ The subject of the study is still a virgin and needs many studies and research in order to delve into the elements of the Arab personality and the secret of its components. And that definitely needs room in publishing templates

Key word:Poetry – Knight – Stability – Escape – Society.

المقدمة:

إن الحرب كانت بالنسبة إلى عرب الجاهلية شراً لا بد منه في عالم ملؤه التنافس، والاعتداء، والغدر. أضف إلى ذلك أن حياة العرب الصحراوية القاسية طبعت نفوسهم بطابع القسوة والقوة والعنف، وجعلتهم يعيشون في خلاف دائم، مع تزايد دافع انتقام البشر بعضهم من بعض، وتغصّب كل طرف إلى قبيلته وعشيرته، وهو أمر طبيعي لا تخلو منه أمة من الأمم، ولكن كان أكثر وضوحاً عند الجاهليين. ولما كان الشعر عن العرب في الجاهلية ديوانهم وسجل تاريخهم فقد سجلوا فيه كل مواقفهم، وأيامهم، ومآثرهم، وبطولاتهم. وحروبهم وما يصاحبها من بسالة وثبات، وهروب وفرار، فهم على شجاعتهم وصبرهم، بشر تتوق أنفسهم إلى حب السلامة، والحياة، والمتعة، ولكن كان خوفهم الأكبر من الهجاء، والمخازي والذم، لذا كانوا يصورون ثباتهم واقحامهم أكثر مما يصورون فرارهم وهروبهم من اللقاء. وكانوا يجعلون لفرارهم مسوغات وأسباب تهون مغبته في نفوسهم أولاً وتثلج صدورهم من نيران العار واللوم المشتعلة دواخلهم، وتجد لهم الحجة والعذر عند من لامهم وذمهم من الناس. فمنهم من يحمل مغبة فراره لفرسه الذي خاض به المعركة، أو أي عذر يخرج به من اللوم والذم.

جاءت هذه الدراسة مكونة من محورين اعتمد فيهما الباحث على التقصي، والتحليل الأدبي، لما دونه العرب عن الحرب والثبات فيها، والفرار منها ولمسوغات فرارهم، وهربهم واختلافها من فارس لفارس. فتناول المحور الأول الفروسية عند العرب الجاهليين، وكيف أنها كانت مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية وأنها لم تقتصر على الحرب والقتال فقط، إنما شملت المثل العليا، والأخلاق الكريمة الفاضلة ونجدة المستغيث وغيرها من نبيل الأخلاق وكرهها.

أما المحور الثاني فتطرق فيه الباحث إلى الفرار عند العرب الجاهليين ودوافعه ومسوغاته التي يتعلل بها الفرسان هرباً من مغبة الذم ومثالبه؛ حيث تتبع هذه المثالب الهارب كل حياته. كما تطرق المحور لحالة الفرسان في الحرب ونزاعهم النفسي بين ثبات يكسب المحمدة والمدح، وفرار يلزم المذمة والهجاء.

المحور الأول:

الفروسية عند العرب الجاهليين:

لم تكن الفروسية في العصر الجاهلي، نظاماً معيناً يفرض على أتباعه سلوكاً خاصاً، وإنما مظهراً من مظاهر الحياة، نشأ من عوامل اجتماعية وخلقية. ساعدت على تطوره فطرة عربية سليمة، وجدت في قيم المجتمع الجاهلي هدفها الذي تسعى إليه. ولقد حفل الشعر الجاهلي بالحديث عن الفروسية بوصفها الطابع المميز للحياة الجاهلية، والسمة الغالبة على طبائع العرب، ولكونها واحدة من مجموعة المثل الرفيعة والقيم والبطولات التي ترددت على ألسنة الشعراء الفرسان.

أرى أن كلمة (فروسية) اشتقت من كلمة (فرس)، وعُرف الفارس في الزمن الماضي بأنه ذلك الشجاع قوي البنية الذي يمتطي صهوة جواده. وتغير مضمونها بمرور الزمن ليشمل مجموعة من الفضائل والمكارم مجتمعة في الفارس.

الفرس واحد الخيل، والجمع أفراس، الذكر والأنثى في ذلك سواء وراكبه فارس مثل لابنٍ وتامرٍ، وقال السَّكَيْت: إذا كان الرجل على حافر، برذونا كانت أو فرساً أو بغلاً أو حماراً قلت: مر بنا فارس على بغل، ومر بنا فارس على حمار قال الشاعر:

وإني امرؤٌ للخيلِ عندي مزيَّةٌ على فارسِ البرذونِ أو فارسِ البغلِ

والفارس صاحب الفرس على إرادة النسب، والجمع فرسان، والفَرَسَة بالفتح، مصدر قولك رجل فارس على الخيل يقال: فارس بين الفروسة والفَرَسَة والفروسية، وإذا كان فارساً بعينه ونظره فهو بين الفَرَسَة بكسر الفاء، ويقال: إن فلاناً لفارس بذلك الأمر إذا كان عالماً به ويقال: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.⁽¹⁾ ويرى الأستاذ البروفيسور/ عبد الله الطيب -رحمة الله عليه- عند حديثه عن الفروسية أن الفروسية العربية مرتبطة كل الارتباط بالشعر ويقول: (إن الشاعر العربي في قلقه عن مذهب الكلمات أخذ يجنح إلى الفروسية طالباً للحرية والانطلاق من سبيلها).⁽²⁾

جاء في دائرة المعارف البريطانية عن الفروسية أنها كانت تعني في القرون الوسطى الفرسان المسلمين تسليحاً كاملاً وهم ممتطون صهوات جيادهم، ثم صارت بمرور الزمن تعني الشرف والشهامة والنخوة المتوقعة من الفرسان، وأخيراً صارت في مدلولها العام تعني الأدب.⁽³⁾

ويمضي قائلاً: (وما يؤيد ذلك أن الشعراء سعوا في طلب المذاهب والقيم، إذ أحسوا في الفروسية طاقة يخرجون بها من قيود التكهن ثم لا يكونون مع ذلك بعيدين عن مكان السيادة، فإنهم إن أقبلوا على تجارتهم فيها يتغنون بها، ويبثون نبأها بين مجتمعهم، ويعظمون من شأنها. ولقد ارتاحوا للفروسية دهرًا طويلاً لما كانوا بها في منزلة وسط بين الدين ذي الرهبوت والرياسة ذات الوقار).⁽⁴⁾

إن الحديث عن الفروسية بلا شك يقودنا إلى الحديث عن الفارس وقيمه وأخلاقه، فقد كان المجتمع آنذاك يزن الفارس بموازين دقيقة ليس فيها مجال للمجاملة والغش، فالشجاعة، والصبر، والثبات والمروءة، ونصرة المستغيث الملهوف، والكرم، والأمانة، وغيرها من الصفات الكريمة كانت مدارج الفرسان إلى السمو فوق مراتب الفروسية.

إذن فالفروسية عند الجاهليين لم تكن مقتصرة على الحرب والقتال فقط، وإنما شملت المثل العليا، والأخلاق الفاضلة، وذلك لأن شخصية الفارس تملئ عليه أن يكون إنساناً سامياً بأخلاقه إلى جانب بطولته، ومن ثم فإن أخلاق الفرسان هي الأخلاق التي سعى إليها العرب جميعهم. فنادوا بالكرم وعزة النفس. ودفع الظلم والظيم عن الآخرين، فضلاً عن الأمانة، وكره الغدر ونقض المواثيق، واحترام حرمة الجار وجواره في ماله، وولده، وأهله يقول عنترة بن شداد:

أغشى فتاة الحيِّ عندَ حَليلها	وإذا غزا في الجيش لا أغشاهَا
وأغضُّ طرفي ما بدت لي جاري	حتى يوارى جاري مأواها
أني امرؤٌ سَمَحُ الخليفة ماجدٌ	لا أتبع النفسَ اللَّجُوجَ هَواها ⁽⁵⁾

ومن ذلك قول حاتم بن عبد الله الطائي:

وما تَسْتَكِّي جَارِي غير أَنَّهَا إذا غاب عنها بَعْلُهَا لا أُرْوِهَا
سَيَبْلُغُهَا حَيْرِي ويرجعُ بَعْلُهَا إليها ولم يُقصر عَلَيَّ سُتُورُهَا⁽⁶⁾

ما أوردته من شاهدين لشاعرين من شعراء الجاهلية مثلاً لنا دليلاً بيّناً، ورسالة موجزة أوضحت ما في ذلك المجتمع من قيم مثلى، وأخلاق فضلى سادت فيهم على جاهليتهم المعركة في الضلال الروحي، وأعتبرهما إطناباً لما أوجزه النبي «صلى الله عليه وسلم» في قوله (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)⁽⁷⁾. ومما لا يخفى على مطلع، علاقة الفروسية بالشعر، ومن الشعراء من صُنّف ووُضع تحت مظلة الفرسان، ولوائها، كعنزة بن شداد، ولبيد بن أبي ربيعة، ودريد بن الصمة وعروة بن الورد، وعامر بن الطفيل، وغيرهم من الشعراء الفرسان.

ولعبد الله الطيب رأي فيما آلت إليه الفروسية في آخر أمرها حيث يقول: (إن الفروسية آخر أمرها صارت مذهباً محافظاً ذا رسوم وطقوس وقيود، وأصبح غير عسير على الكريم من القوم أن يكون فارساً بطلاً من غير أن يكون شاعراً خالصاً للشعر، بل لعل من لم يكن شاعراً من القوم قد كان حريّاً أن يكون أقوم بواجب الفروسية ورسمها من الشاعر، لما تقتضيه طبيعة الشعر من كراهة المحافظة، ومن جنوح إلى الحرية والانطلاق).⁽⁸⁾

ويشير أيضاً إلى الشعراء الصعاليك أنهم مجموعة من الفرسان أخلصوا لمحض الصلّة ويضيق مذهب الفروسية أو حدود القبيلة بهم، وأنهم عمدوا إلى أن يضيفوا على قيم الصلّة بهاءً أشد من بهاء قيم الفروسية، وكأنما راموا أن يجعلوا منها مذهباً هو فروسية الفروسية.⁽⁹⁾

كان المجتمع الجاهلي مسرحاً صادقاً، لما اعتري ذلك العصر من حروب، وغازات، وتنازع بين القبائل إما لأخذ بثأر أو تنافس على مرعى. ليعكس بدوره الجانب الآخر للفروسية من شجاعة وصبر وثبات عند لقاء العدو، وإغاثة لمستغيث في الحرب أو غيرها، وفوق ذلك كله الهمة والنشاط في ذلك يقول طرفة:

إذا القومُ قالوا مَنْ فتى خَلْتُ أنني

عُنَيْتُ فلم أَكْسَلْ ولم أَتَبَلَّدُ⁽¹⁰⁾

ومن ذلك أيضاً يقول الشاعر:

وإذا الأمور تَعَاظَمَتْ وتَشَابَهَتْ وهُنَاكَ يَفْتَرِفُونَ أَيَّنَ المَفْرَعُ؟
كنا فوارسها الذين إذا دعا داعي الصباح به إليه نَفْرَعُ⁽¹¹⁾

ومن صور الفروسية عند العرب، الهمة في إغاثة الصريح، والصريح هو الذي يأتي القبائل معلناً حاجة قومه للنصرة، والنجدة من مخالفيهم، فيصبون مشمرين عن ساعد الجد، رابين على أفراس كأنها عقبان. يقول سلامة بن جندل:

كنا إذا ما أتانَا صارحُ فزَعُ

كان الصراخ له قرعَ الظنابيب

وشدَّ كُورٍ على وجناء ناجية

وشدَّ سرج على جرداء سرحوب⁽¹²⁾

وقول (قرع الظنايب) كناية عن الهمة والنشاط لنصرة المغلوب، ويقال: قد قرع ظنوبه لهذا الأمر، أي عزم عليه. فهم عند الفرع يتنافسون لنصرة الصارخ على أفراس قد اكتمل فيها حميد الخصال. ومن ذلك أيضاً ما ذكره عمرو بن معد يكرب ردّاً على عاذلته مفتخراً بقيمة مثلث الفروسية مجتمعة فيه، من كرم، وصبر، وهمة في النجدة وحلم، وصبر في اللقاء، قال:

أعاذلُ شكتي بزّي ورمحي وكلّ مقلّص سلس القياد
أعاذلُ إغما أفني شباي ركوبي في الصريخ إلى المنادي
مع الأبطال حتى سلّ جسمي وأقرح عاتقي حملُ النّجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي ويفنى قبل زاد القوم زادي⁽¹³⁾
(ولعل دريد بم الصمة حين أجاب أخاه، عبد الله كان دافعه أكبر وأقوى، واجتمعت فيه -وقتئذٍ- دوافع الفروسية الواجبة وفطرة حب السلامة لأخيه، فالمستغيث أخوه حين قال:

دعاني أخي والخيّل بيني وبينه فلما دعاني لم يجدي بقعد
فجئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج المُمَدّد
فطاعت عنه الخيل حتى تنهت وحتى علاني كل أشقر اللون مزبد⁽¹⁴⁾
وعنترة حين نودي لم يتغافل ويتصامم عن داعية، فكانت اجابته له نصرةً وكشفاً سريعاً للكرب الذي كان فيه، حيث عطف نحوه جواده فكفاه عدوه. وكان رده أبلغ من أي رد:

ومكروپ كشت الكرب عنه بضربة فيصل لما دعاني
فلم أمسك بسمعي إذ دعاني قد أبان له لساني
فكان اجابتي أيّاه أيّ عطف عليه خوار العنان
بأسمر من رماح الخطّ لذنّ وأبيض صارم ذكر يمان⁽¹⁵⁾
من مظاهر الفروسية الافتخار بمقارعة الخصوم، والقدرة على القتال، ومهارتهم حرية، فهم يقاتلون العدو راجلين أو راكبين على خيولهم التي اعتادت على التلاحم واقتحام الهيجا يقول قائلهم:

كلّا زعمتم بأنّا لا نقاتلكم إنّنا لأمثالكم يا قومنا قُتّل
قالوا: الركوب قللنا: تلك عادتنا أو تنزلون فإنّا معشر نُزل⁽¹⁶⁾
أبت نفسي إلا أن أقف عند هذه النقطة تحديداً، وأشير إلى شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم، وفروسيّتهم، ومهارتهم في فنون القتال وصبرهم عليه، ولا أظن أن المقارنة تحسن في هذا الموضع بين الفرسان المقاتلين في الإسلام والفرسان في الجاهلية، فالدوافع في الإسلام كانت أسمى وأجل، والغاية التي يدخلون من أجلها القتال أعظم. أورد صاحب الأقوال الكافية والفصول الشافية هذه الفقرة: (كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، يقاتل فارساً ورجلاً، وحكي عن بعضهم قال: قلتُ لأُمير المؤمنين: من أشجع الناس؟ قال: ابن صفية، يعني الزبير، قال: فأتيّت الزبير فقلت له: من أشجع الناس؟ قال: الطهر بن فاطمة يعني علياً، إلا أنه لا يقاتل إلا رجلاً، فأتيّت علياً فقلت له بما قال الزبير، فقال:

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من أطاق النزول
قال فرجعت إلى الزبير فأعلمته بما قال أمير المؤمنين، فقال صدق، هو والله أشجع منّي فارساً

وصل بعض الفرسان الجاهليين إلى حقيقة كانت وراء تلك الشجاعة والإقدام، وسبباً مقنعاً للثبات ومانعاً من الفرار، وهي علمهم وإيمانهم بحتمية الموت، وإنه لا مفر منه، وبما أن الموت كذلك فما من داعٍ إلى الحرص على الحياة، فإذا لم يكن تفادي الموت ممكناً فإن الخوف منه عبث لا طائل من ورائه. وإيمانهم هذا على القدر الذي كان الجاهليون يفهمونه من توحيد فطري. يقول الحسين بن حمام.

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلمست ممتاع الحياة بسبة ولا مبتغٍ من رهبة الموت سُلماً⁽¹⁸⁾
ومن ذلك أيضاً ما قاله زهير بن أبي سلمى في المعنى حين قال:
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

ولو رام أسباب السماء بسُلماً⁽¹⁹⁾

وعمر بن الإطابة، كان أكثر واقعاً وتصويراً، فلم ينس أن يلوذ بنفسه إلى النفس البشرية التي تحب الحياة، فيدخل في نزاع بينه وبين نفسه المحبة للحياة، ولكن ينهاها عن الفرار ويضعها بين خيارين لا ثالث لهما إما الصبر ونيل الحمد أو الموت حين قال:

أبت لي همتي وإني بلأني وأخذي الحمد بالثمن الرِّيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضري هامة البطل المُشِيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمدي أو تستريحي⁽²⁰⁾

ودريد بن الصمة الذي كانت دوافعه أكبر للثبات فضلاً عن شجاعته وكونه أحد الفرسان، فثباته لنجدة أخيه عبد الله كانت نابعة من فطرة الأخوة، وإيمانه بحتمية الأقدار، وأن الخلد لم يكتب لإنسان قط وذلك قوله:

فطاعنت عنه الخيل حتى تنهت وحتى علاني كل أشقر اللون مزبد
طعان أمري آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مُخلدٍ⁽²¹⁾

إذن فالصبر عند اللقاء والثبات كانت دوافعه في الجاهلية إما حمداً وفخراً تسير به الركبان في مجامعها، أو موتاً بطعم النصر. لذا نجد الفرسان الذين يفرون من اللقاء كانوا يسوغون مبررات لذلك الفرار حتى يخرجوا أنفسهم من ذم لاحق باق يتوارثه الأبناء وهذا ما نتطرق إليه إن شاء الله تعالى في المحور اللاحق.

نصل أخيراً لإثبات حقيقة أن الفروسية مسلمة للعرب، لا ينازعهم فيها إلا جاهل، ولا ينكر ذلك إلا حاسد أو متعصب لباطل، وقد خلب الفرسان العرب بفروسياتهم وآدابها هذه ألباب الشعوب الأوربية التي اتصلت بهم في القرون الوسطى، سواء عن طريق الحروب الصليبية في الشرق، أو عن طريق صقلية والأندلس، فقد أكد الباحثون الغربيون خلال دراساتهم وأبحاثهم أن أساس وأصل الفروسية عند الغربيين كان صدى للفروسية العربية. قال العلامة نيكلسون: (من الممكن أن تتبع فروسية العصور الوسطى، ونرجعها إلى بلاد العرب الجاهلية، لأن شهامة الفرسان، ومغامراتهم لإنقاذ العذارى من السبي، والمساعدة التي كانت تقدم في كل مكان للنساء المحتاجات إلى المساعدة كل هذه الصفات عربية، وقد أطلق عليها في أوربا كلمة

نبل أو بطولة Chivalry، والصلة وثيقة بين هذه الأعمال المجيدة والفارس، ذلك البطل النبيل الشريف Chivalrous، لذلك اقترن الشعر بالفروسية في أوروبا كما اقترن عند العرب، بل أصبح شرطاً من شروطها، وصار لازماً على الفرسان أن يقرضوه.⁽²²⁾

وقد تحدث الكاتب الفرنسي (غوستاف لوبون) في كتاب (حضارة العرب) عن قواعد الفروسية عندهم فقال: (للفروسية العربية شروطها كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء يعد فارساً إلا إذا تحلى بالصفات التالية: الصلاح، والكرامة، والفصاحة، والقوة والمهارة في ركوب الخيل، والملكمة الشعرية، والمقدرة على استعمال السيف والرمح).⁽²³⁾

المحور الثاني: مسوغات الفرار عند العرب الجاهليين ودوافعه

الفرّ والفرار، الروغان والهرب⁽²⁴⁾ وفرّ يفرّ فراراً، هرب⁽²⁵⁾، ورجل، فرور، وفرار غير كرار⁽²⁶⁾، ويتفق هذا المفهوم مع الهرب، بل هو مرادفه. فالهرب هو الفرار: (وهرب يهرب هرباً وهروباً. فر ويكون ذلك للإنسان والحيوان)⁽²⁷⁾ ومن ذلك قول عنترة بن شداد في وصف الفارس الذي قابله في المعركة، حين أضفى الشاعر على الفارس صفات كريمة برهن بها أنه لم يقابل عدواً هيناً سهلاً؛ ليكسب فخره قوة وصدقاً

ومدحج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم⁽²⁸⁾

إن أمر الفارس في أي حرب من الحروب بلا شك ينتهي إلى ظفر أو هزيمة، فإذا ظفر ملأ الجو هتافاً وضجيجاً، وإذا كان من الذين لا يبترهم النصر فإنه يكتفي بذلك البشر والطلاقة التي تعلو وجوه المنتصرين، وإذا انتهى أمره إلى هزيمة فإنه يرجع منكس الرأس، منقبض الأسارير؟ ما إذا كان من الذين يؤمنون أن الهزيمة خطوة في طريق النصر فإنه بلا شك يعود وعلى وجهه ترسم علامة الرضا من النفس؛ وكأنه يؤمن بأن كل ما عليه الأخذ بالأسباب والإقدام وليس عليه إدراك النجاح؛ فلكل واقعة ظروفها وأحداثها وتراه راضياً حتى إذا غمت نفسه عليه ودفعته للفرار مؤمناً بأن الفرار من دواعي الحرب والخطط الحربية، فالفارس يعرف متى يكرّ ومتى ينجو ومتى يفر إن دعا داعي الفرار، فهنا يصرح به علانية في شعره كقول عامر بن الطفيل واصفاً إفلاته يوم الرقم.

نَجَوْتُ بَنَصْلِ السَّيْفِ لَا غَمَدَ فَوْقَهُ

وَسَرَجٍ عَلَى ظَهْرِ «الحمالة» قَاتِرٍ⁽²⁹⁾

فلو أنها تجري، إذن للحقتها

ولكنها تهفو بتمثال طائر

والحمالة فرسه التي نجا عليها وعرفت بالسرعة، والعنق، وهي أم المرتجز فرس النبي «صلى الله عليه وسلم» وإنما سُمي بذلك لحسن صهيله.⁽³⁰⁾

ومن ذلك قول مالك بن أبي كعب متحدثاً عن قتاله في الحرب، ونجاته منها، لكون النجاة لا مغبةً فهي من دواعي الحرب وظروفها.

معاذ إلهي أن تقول حليتي
ألا فرّ عني مالك بن أبي كعب
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً
وأنجو إذا غمّ الجبان من الكرب⁽³¹⁾

وقال زيد الخيل:

أقاتل حتى لا أرى لي مُقاتلاً وأنجو إذا لم ينجُ إلا المكيسُ⁽³²⁾
النجاة والمحافظة على النفس من الهلاك نط من أخطأ البطولة وضرب من ضربها كقول الحارث بن وعلّة عند فراره يوم الكلاب الثاني:

فدى لكما رجلي أُمي وخالتي غداً الكلاب إذ تحز الدوابر
نجوت نجاءً لم ير الناس مثله كأني عقاب عند تيمن كاسر
يقو لي النهدي: إنك مردفي وكيف رادف الفلّ أمك عابر
يذكرني بالرحم بيني وبينه وقد كان في نهد وجرم تدابر⁽³³⁾
إذن فالنجاة عندهم فن من فنون اللقاء، لا يدركها إلا كيسُ فطن حاذق ماهر بشئون الحرب كرها وفرها. ومنهم من يقرأ أحداث المعركة فإذا رأى الدائرة عليه، وعدم تكافؤ الفريقين فرّ ونجا بنفسه متوعداً عدوه بيوم ثار يكون فيه التكافؤ في العدد والعدة، قال الحارث بن هشام:

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسي بأشقر مزبد
فصدت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد
وعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل، ولا يضرر عدوي مشهدي⁽³⁴⁾
إذن رغم شجاعة العرب المفردة، وأقدامهم في الحروب، إلا أن الحرب تستوجب في بعض الأحيان الفرار، خاصة إذا شعر الفارس بأن الدائرة تدور عليه، وإن بقاءه في المعركة لا يكسبه إلا القتل، أو الأسر، لذا نجد بعض الفرسان يدافعون على فرارهم هذا ويسبغون عليه طابعاً من الشرعية، ويدعمون ذلك بالحجج والبراهين، يسوغون لأنفسهم ذلك دون أن يجدوا في دفاعهم أمراً يدعو إلى الخجل وقولهم «إن السلامة إحدى الغنيمتين» «والفرار في وقته خير من الثبات في غير وقته».⁽³⁵⁾

يقول العوام بن شُوذب الشيباني:

ففر أبو الصهباء إذ حمس الوغى وألقى بأبدان السلاح وسلمنا
وأيقن أن الخيل إن تلتبس به يقظ عانياً أو يملأ البيت أمّتها⁽³⁶⁾
وقد يعترف الفارس بهربه وفراره ولا يرى فيه مثلبة، عذره في ذلك وحجته عدم تكافؤ الفريقين -كما ذكرت سابقاً- فخصمه وعدوه قابله بكامل عدته وعتاده ورجاله، فتفاجأ بذلك وفزعت نفسه من نزاهم، فلاذ بالفرار، فعامر بن الطفيل فارس قومه يفر من وجه أعدائه بني الحرث يوم (فيف الرياح) ويعتذر من ذلك ويعلل لفراره بكثرة جيش أعدائه قوله:

أقول لنفس لإيجاد بمثلها أقلّي المراح إنني غير مُقصر
فلو كان جمع مثلنا لم نبالهم ولكن أتننا أسرة ذات مفخر
فجاءوا بفرسان العريضة كلها وأكُلب طُراً في لباس السُنور⁽³⁷⁾
تأبط شرّاً، حين ذكر نجاته من قبيلة بجيلة هو وصاحبيه، أراد أن يفخر بهذه الحادثة التي لها وقع كبير في حياته أبانت صبره وقوة تحمله وسرعته وشدة عدوه، فليس فيها ما يعيبه فبقاؤه في الأسر والقيّد يعني الموت والتنكيل، ففخر بهذه النجاة لأنها كانت عدواً على الأقدام.

نَجُوتُ منها نَجَائِي من بجيلة إذ
ليلة صاحوا وأغروا بي سراهم
أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبَّتِ الرَّهْطُ أرواقي
بالعيكيتين لدى معدي ابن براق
كَأَنَّمَا حَثَحْتُوا حُصًّا قوادمه
أو أم خشف بذني شتً وطُباقي
ولا شيء أسرع مني ليس ذا عذر
وذا جناحٍ بجنب الرِّيد خفاق⁽³⁸⁾

كما يرى بعض الفرسان في الفرار شراً لأبد منه، فهم شجعان ولكنهم يرون الاستمرار في الحرب والثبات في غير وقته لا يعني سوى هلاكهم وأسره، فيلجأون إلى الهرب لكونه أهون المصائب. ولكن سرعان ما يقعون في هم أكبر، وهو التنازع النفسي، والنقد الذاتي وتأنيب الضمير ولومه، فتجدهم يبحثون عن أسباب مقنعة يقنعون بها أنفسهم أولاً لإخماد نار اللوم التي تأججت ودخلهم، فيسوغون الحجج والبواعث، ولا يفتأون يهددون ويتوعدون بالأخذ بالثأر، والانتقام لاسترجاع ما فاتهم من عز ونصر. فهم يعترفون بأن الفرار خزي وعارٌ، وإن كان سبباً في نجاتهم، يقول عمرو بن معد يكرب معللاً لفراره من لقاء بن عبس، راداً على نفسه التي تحرقه باللوم قائلاً:

أَجَاعَلُهُ أَمَ النَوِيرِ خَزَايَةَ
لَقَيْتُ أَبَا شَأْسَ وَشَأْسًا وَمَالِكًا
عَلَيَّ فَرَارِي إِذْ لَقَيْتُ بَنِي عَبْسٍ
وَقَيْسًا فَجَاشَتْ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
فَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ فِيءِ رِمَاحِهِمْ
خَبَطْتُ بِكَفِّي أَطْلُبُ الْأَرْضَ بِالْمَسِّ
وَلَيْسَ يَعَابُ الْمَرْءُ فِي جَبْنِ يَوْمِهِ
إِذَا عُرِفَتْ مِنْهُ الشَّجَاعَةُ بِالْأَمْسِ⁽³⁹⁾

ومنهم من يرى أن القتل والأسر أهون على نفسه من الفرار والهرب، ففي الهرب والفرار خزي يلزم صاحبه أبد الدهر، لذا لا يجنحون إلى الفرار، وإن دعت دواعيه، فها هو عبد يغوث بن وقاص الحارثي. ليلة أسره بنوه تميم، وأبوا إلا أن يقتلوه بالنعمان بن جساس، وقد عذبه عذاباً شديداً، وشدوا لسانه حتى لا يهجوهم، فلما لم يجد من القتل بداً طلب إليهم أن يطلقوا عنه لسانه؛ ليهجو ويذم أصحابه وقومه الذين تركوه لذل الأسر، وقذفوا به بين أنياب الموت، ولومهم على فرارهم يوم الكلاب، فهو إن أراد فراراً مثلهم لفر، وفرسه قادرة على النجاة به؛ لأنها نهدة كريمة سريعة، ولكنه يرى في الفرار خزياً أعظم من الأسر، فقرر البقاء والثبات ليحمي ذمار قومه وعشيرته. قوله:

فِيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتُ فَبَلَّغْتُ
أَبَا كَرِبٍ وَالْأَيُّهَمِينَ كِلَيْهِمَا
نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانٍ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
جَزَى اللَّهَ قَوْمِي بِالْكَلابِ مَلَامَةً
وَقَيْسًا بِأَعْلَى حَضْرَتِ الْيَمَانِيَا
وَلَوْ شِئْتُ نَجَّيْتُ مِنَ الْخَيْلِ نَهْدَةً
صَرِيحُهُمُ وَالْآخِرِينَ الْمَوَالِيَا
وَلَكِنِّي أَحْمِي ذِمَارَ أَبِيكُمْ
تَرَى خَلْفَهَا الْحُوَّ الْجِيَادَ تَوَالِيَا
وَكَانَ الرَّمَا حَ يَخْتَطِفُنَ الْمُحَامِيَا⁽⁴⁰⁾

وقد استفاد بعض الفرسان من معرفتهم بسلوك الخيل، وسياستهم إليه، ومعرفة طبائعه، فكان الواحد منهم إذا ضاق به وغشيته الرماح، لم ير مخرجاً أمامه، ولا مغيثاً إلا الفرار؛ استحث فرسه بضرب «قنبه»⁽⁴¹⁾ على الفرار، وهذا ما قام به الأسمر بن أبي حمران عندما حاصر بنو مازن، وكان منقذه من ذلك الخطر خالته التي صاحب به: (أضرب قنبه، ففعل فوثب به، ولم يدرك ونجا).⁽⁴²⁾

والخيل أيضاً تختلف أحوالها، فمنها الشجاع الشهم عند الحرب، الذي يركب ما قابله ولا ينهزم من

شيء يراه، ومنها الجبان الذي لا يكاد يثبت قوائمه إذا دخل المعركة، ويكثر التقلب كالمتوقع للفرار، كما يرى في الرجل الجبان. ومن ذلك وصف مهلهل لشجاعة أفراسه وصبرها وثباتها في الحرب قائلاً:

محرمة أكفأ خيلي على القنا
فخيله تدمي مقبله غير مدبرة.

والحارث بن أوس بن عبد ود، يرى نجاءه من حربه مع بني يربوع سببها فرسه الذي أسرع به لينجيه من قتل محقق. ففرسه الذي يدعى (حومل) كان له حزم وسرعة:

ولولا حَزْمُ حَوْمَلٍ يوم عُدِرٍ
لمَرَقْنِي وإياها السلاحُ⁽⁴³⁾

ومن الفرسان من يسوغ لفراره من المعركة، ويتحجج بسبب نفور فرسه وحرانه أو جماحه، وكل هذه الصفات من طباع الخيل المذمومة، يقول في ذلك صاحب الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل: (الحران أقبح ما يكون، فإنه يحرن بفارسه في حومة الحرب، فيكون سبباً لتلفه، وهذا العيب قد تنفع فيه المعالجة وحسن الرياضة وقد لا تفيد، والجماح هو أن يركب الفرس رأسه ولا يبالي بالجم، ولا يجذبه ويعض على شكائهم لجامه، والعرب تسميه (الخروط). أما النفور فهو فزع الفرس وخوفه من غبار المعركة وضجيجها ونيرانها وتلاحمها فيفر على عقبيه ولا يبالي بفارسه)⁽⁴⁴⁾ وأوردنا من هذا القبيل قول قبيصة بن النصراني واصفاً فرسه الذي نفر وعزّه وابتعد به عن المعركة، محملاً أياه مغبة فراره وخزيته بعد أن ترك بسبب نفوره أصحابه في مأزق شديد وضيق. قوله:

ألم تر أن الورد عَرَدَ صدره
وأخرجني من فتية لم أرد لهم
وعَضَّ على فأس اللجام وعَزَّنِي
أحدت من لا قيْتُ يوماً بلاءه
وحد عن الدعوى وضوء البوارق
فراقاً وهم في مأزق متضايق
على أمره إذ ردَّ أهل الحقائق
وهم يحسبون أنني غير صادق⁽⁴⁶⁾

ومنهم من تحدثه نفسه على الفرار، وتغريه بالحياة، فيدخل في نزاع داخلي بينه ونفسه وذلك في لحظات القتال نفسها، فإذا تبع نفسه هرب، وإذا نهته نفسه، والزماها الصبر والثبات، أثبت رجله في مستنقع الموت وفاز بالحمد والرضا كقول عمر بن الاطنابة:

وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تُحمدي أو تستريحي⁽⁴⁷⁾

ولربما كان هذا البيت سبباً في ثبات غيره من الفرسان من مواطن أخرى وأزمته لاحقة. ومن الفرسان من يحاور فرسه، ويحثه على البقاء والثبات. فعار الفرار إن وقع لاحق بهما الاثنان كليهما قال عامر بن الطفيل:

إذا أزور من وقع الرماح زجرته
وأنبأته أن الفرار خزاية
ألست ترى أرماحهم في شرعاً
وأنت حصانٌ ماجد العرق فأصبر⁽⁴⁸⁾
وقلت له أرجع مقبلاً غير مدبر
على المرء ما لم يُبَلِّ جهداً ويُعذر

وقد يلتزم الشاعر الحياء والإنصاف في قضية الفرار، فتكون وظيفته في هذه الحالة أشبه بوظيفة المؤرخ الذي يدون الأحداث دون أن ينعت القبيلة المهزومة بالجبن والعار، مفتخراً في الوقت ذاته بقومه أو

بالجهة التي يميل إليها كقول خدّاش بن زهير يفخر بثبات قومه يوم شمطة على الرغم من قوة خصمهم فيقول:

عمود المجد إن له عموداً	بأنّ يوم شمطة قد أقمنا
عوايس يدّرعن النقع قوداً	جلينا الخيل ساهمة إليهم
مع الإصباح جارية وثيداً	وقد حتموا القضاء ليجعلونا
فقلنا: لا فرار ولا صدوداً	وقالوا: يالعمرو لا تفروا
عراك النمر واجهت الأسوداً	وعاركنا الكماة وعاركونا
ولا كذيادنا غباً مذوداً ⁽⁴⁹⁾	فلم أر مثلهم هزموا وفلّوا

الخاتمة:

إن الحرب بالنسبة للعرب كانت شراً لا بد منه، فالنفس البشرية جُبِلت على حب الحياة والسلامة والمتعة والحرية، وكره الموت والهلاك والأسر. وأمر الفارس في المعركة بلا محالة ينتهي إما إلى ظفر أو هزيمة، قتل أو فرار. والعرب على شجاعتهم المفرطة، وحبهم للمدح واكتساب صفات الفروسية، إلا أن النفس البشرية أحياناً تغلب على الفارس بأمورها وما خلقت عليه خاصة إذا رأى الفارس أن الدائرة تدور عليه فهو يفكر وهو هارب في تعليل يرضي به نفسه أولاً قبل إرضاء المجتمع. لذا نجده يتوعد بالتأثر، ويعلل لهذا الفرار بأسباب واقعية.

تمنيت أن يتاح متسع أكبر لهذا الموضوع حتى نغطي كل شاردة وواردة فيه، غير أن الالتزام بشروط النشر جعل التوسع فيه ضيقة لكن مع ضيق المساحة آمل أن تكون غطت الدراسة جزءاً كبيراً منه حيث خلصت الدراسة إلى:

أولاً: إن الفروسية عند العرب تجاوزت حداً بعيداً لتشمل قيماً وأخلاقاً أسمى إضافة إلى الحرب والقتال. لذا فهي مقرونة بالعرب ملازمة لهم إن لم تكن مقتصرة عليهم.

ثانياً: إن النفس البشرية تقحم الفرسان في نزاع كبير أثناء الحرب بين ثبات وفرار، ومحمدة ومذمة ومدح وهجاء فهم في جاهليتهم الأولى ليس لهم دوافع للثبات غير التي ذكرت. الأمر الذي اختلف في الاسلام اختلافاً جوهرياً كبيراً يبدأ بسبب الحرب نفسها، وينتهي بأن الفارس ينازع نفسه إما إلى جنة أو نار.

ثالثاً: اشترك الفرس مع فارسه في كل محمودة وشكر، ومذمة ولوم وكثيراً ما تجد الفرسان يخاطبون أفراسهم ويدعونهم للثبات، ويذكرونهم بنجابة العرق والأصل كقول عامر بن الطفيل:

ألست ترى أرماحهم في شُرعا وأنت حصانٌ ماجد العرق فاصبر⁽⁵⁰⁾.

رابعاً: ما زال موضوع الدراسة بكرة يمكن أن تكتب فيه دراسات أخرى بطرق شتى، يسعى الباحث إلى دراسته دراسة أدق وأشمل، يخصص لها كتاباً منفرداً إن شاء الله تعالى.

الهوامش:

- (1) ابن منظور، لسان العرب، (مادة فرس).
- (2) عبد الله الطيب- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار جامعة الخرطوم للنشر- الطبعة الأولى- الكويت -1990م- ج3- ص854.
- (3) الإنترنت: منتدى الأدباء العرب، محاضرة عن الفروسيّة www.walwaei.com
- (4) عبد الله الطيب- المرشد إلى فهم أشعار العرب- ص854.
- (5) عنتره بن شداد- ديوان عنتره بن شداد العبسي- دار بيروت - دار صادر للطباعة والنشر 1377هـ- 1958م، ص51.
- (6) الشمشاطي- الأنواء ومحاسن الأشعار: أبو الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي- تحقيق د. محمد يوسف - مطبعة الكويت 1977م- ص243.
- (7) أبو داود- سنن أبي داود، أخرجه أبو داود والحاكم أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني- ب.د.ت، ص112.
- (8) عبد الله الطيب- المرشد إلى فهم أشعار العرب- ص856.
- (9) المصدر السابق نفسه، ص858.
- (10) التبريزي- القصائد العشر- معلقة طرفة بن العبد - إدارة طباعة المنيرية- دمشق 1352هـ- الطبعة الثانية، ص76.
- (11) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص299.
- (12) الضبي المفضل بن محمد بن يعلي- المفضليات : تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد صارون- الطبعة الثالثة- دار المعارف - مصر 1964م، ص235.
- (13) علي بن داود يوسف الغسالي- الأقوال الكافية، والفصول الشافية في الفيل، تحقيق الدكتور/ يحي وهيب، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، 1987م- ص512.
- (14) التبريزي أبو زكريا - شرح ديوان الحماسة للمؤلف يحي بن علي بن محمد الشيباني - دار الكتب العلمية - بيروت - 2000م - ج2 - ص157.
- (15) ديوان عنتره بن شداد - ص87.
- (16) الشمشاطي- الأنوار ومحاسن الأشعار- ص518.
- (17) الغساني- الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل، ص197.
- (18) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص245.
- (19) التبريزي- شرح المعلقات العشر - معلقة زهير، ص125.
- (20) الخالديان - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين - وزارة الثقافة السورية - 1995م - ج1 - ص18.
- (21) التبريزي - شرح الحماسة - ص158 ومابعدا.
- (22) الإنترنت، منتدى الأدباء العرب، محاضرة عن الفروسيّة www.alwapi.com
- (23) نفسه.
- (24) ابن منظور - لسان العرب - مادة فرّ.

- (25) الصحاح مادة فرر.
- (26) اللسان مادة فرر.
- (27) ابن منظور - لسان العرب - مادة هرب.
- (28) التبريزي - شرح معلىة عنرة بن شداد - معلقته المشهورة.
- (29) الشمشاطي الأنوار ومحاسن الأشعار - ص 277.
- (30) ابن الكلبي - أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها - تحقيق المرحوم أحمد زكي - مطبعة دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - 1424هـ - 2003م، ص 19.
- (31) شرح التبريزي - الحماسة - ج 1 - ص 94.
- (32) نفسه ونفسها.
- (33) المفصليات - ص 327.
- (34) التبريزي الحماسة - ص 97.
- (35) الفكي الغرناطي- عبد الله بن محمد - كتاب الخيل - حققه محمد الخطابي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1986م - ص 124.
- (36) نفسه ونفسها.
- (37) ابن الكلبي- أنساب الخيل - يوم فيف الريح: بين بني عامر وقائل مرجع قوم الحرث بن كعب فُعُلب بنو عامر، وأصيب ابن الطفيل من عينه فوثب على فرسه ونجا- ص 64
- (38) المعلىقات - ص 28.
- (39) الكلبي الغرناطي - كتاب الخيل - ص 158.
- (40) المفصليات - ص 157.
- (41) القنب: هو جراب قضيب الدابة، أو كل ذي حافرٍ، وصف أعضاء الفرس - الأقوال الكافية والفصول الشافية- ص 135.
- (42) الكلبي الغرناطي - كتاب الخيل - ص 108.
- (43) الكلبي الغرناطي - كتاب الخيل - ص 120.
- (44) ابن الكلبي - أنساب الخيل - ص 165.
- (45) النسائي - الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل - ص 416.
- (46) التبريزي- شرح ديوان الحماسة - ج 2 - ص 87.
- (47) نفسه ونفسها.
- (48) المفصليات - ص 363.
- (49) مؤيد اليوزكي- البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - الطبعة الأولى - 2008م - ص 242.
- (50) المفصليات - ص 363